أسرة مناضلة

قضى الصول عبد الخالق إجازته مع أسرته يراقب أبناءه ويوجههم ويدبر أمور بيته . . وهو يشعر بالحنان والدفء بين أحضان زوجته، وبالقرب والمودة مع أقربائه وجيرانه . ولم يغب عنه ما يفعلـه ابنه حسين؛ فهو على صغر سنه يتصل بالفدائيين الذين كوّنوا مجموعات صغيرة سريعة تهاجم المعسكرات الإنجليزية فى السويس وتقضّ مضجعها وتشعرها بالقلق وعدم الأمان . . ونجحت تلك المجموعات الصغيرة فى الإيقاع بالدوريات الإنجليزية ونسف بعض المعسكرات، وأشعرت المحتل بأن مصر لن تستكين، وأن هناك نارًا هادئة تسرى فى الـهشيم، وقريبًا ستقضى عليهم قضاء مبرماً .

والأب تتنازعه عاطفتان : عاطفة الوطنية كرجل عسكرى تسرى فى دمائه روح البطولة والنضال، والدفاع عن الوطن . . وعاطفة الأبوة التى تحب الابن وتحرص على بقائه وإبعاده عن مواطن الخطر .

وحاول أن يستدرج ابنه ليفهم منه بعض ما يجرى، والابن يتجاهل ويحول حديث أبيه إلى منعطف آخر، ولكن قصص الابن عن بطولة الفدائيين المصريين وتضحياتهم واستهانتهم بالصعاب أكدت للأب أن حسينـًا على صلة مباشرة بالفدائيين .

سمع الأب فى إحدى الأمسيات انفجارًا مروعًا هزّ المدينة، والتمس ابنه حسينـًا فوجده فى حجرته يجلس فى قلق وترقب كأنه ينتظر خبرًا ما . . وفى اليوم التالى أخبره حسين بأن مجموعة من الفدائيين تسللت إلى معسكر إنجليزى فى هيئة عمال جمع القمامة بعد الاتفاق معهم، ونجحت فى زرع كمية من

المتفجرات فى أماكن متفرقة من المعسكر، وتمكنت من نسف جزء كبير منه وقتل بعض ضباطه وجنوده.

إنها عمليات رائعة، ولكن يعيبها شيء واحد.. أن تخطيطها فردى تقوم به جماعات متفرقة بدافع الحماس والوطنية والغيرة على الوطن دون أن تكون هناك جهة واحدة تخطط لـهذا العمل وترسم لـه الطريق الصحيح.. مما يؤدى إلى سقوط عدد كبير من الأبطال المناضلين.

أوصى الصول ابنه بالحذر واليقظة، وأن يكون فى مستوى المسؤولية، وأنه الابن الأكبر الذى يعتمد عليه كسند مهم لإخوته عند غيابه، فليست البطولة أن تندفع وتستعجل.. بل البطولة الحقة أن نتروى ونتدبر ونخطط التخطيط السليم الذى لا ندفع ثمنه غاليًا.

وعبر الجيش المصرى قناة السويس وتوغل فى سيناء واقترب من مواقع العدو.. وكانت الطلائع التى سبقته قد اشتبكت مع العدو فى أماكن مختلفة.. ووصل الجيش إلى أبواب الفالوجا ودارت معركة قوية بينه وبين العصابات الصهيونية المتمركزة فى تلك المناطق.. وأوشكت ذخيرة الجيش المصرى على النفاد.. وإن ظل يناور العدو بما بقى معه من عتاد حتى وصلت إليه صفقة أسلحة جديدة استبشر بها القادة والجنود ليحرزوا بها النصر.. عرفت ـ فيما بعد ـ باسم الأسلحة الفاسدة.. وصارت وسيلة لدمارهم وهزيمتهم؛ فقد أعدت خصيصا لتكون وسيلة هلاك من الخلف، وتساقط الجنود المصريون بأيديهم قبل أن تنالـهم أيدى العدو.. ونجح المخطط الاستعمارى الغادر فى تحطيم ما بقى من صمود الجيش المصرى الذى تراجع فى انتظام ليحتمى بالفالوجا بعد أن وضحت أمامه الرؤية، وتأكد أنه ألعوبة فى أيدى الخونة الكبار

فى الداخل والخارج .

ولم ييأس الضباط المحاصرون فى الفالوجا أو يستسلموا . . فإيمانهم بوطنهم وعروبتهم صنع لـهم درعًا قوية تصد عنهم ضعف الـهزيمة . . وعاش ضباط الكتيبة شبابـًا وشيوخـًا من أمثال جمال عبد الناصر والسيد طه لحظات بعث جديد . . وتعاهدوا على إنقاذ الوطن من الدخلاء والمرتزقة . . وآمنوا بأن مصر لن يحميها إلا أبناؤها الذين نبتوا من أرضها ، واستمدوا حياتهم من عطائها ، ودفن آباؤهم وأجدادهم فى ثراها الطيب .

وكانت هذه الـهزيمة بداية للنصر . . فنور الفجر الوردى يأتى بعد ظلمة الليل الحالكة . . وفى داخل الفالوجا ترابطت القلوب وتعانقت الأيدى لتصنع لمصر عهدًا جديدًا يردّ لـها كرامتها التى حاول أن يخدشها الخونة المرتشون فى غفلة من أبنائها الأحرار .

ولم يكن الصول عبد الخالق بعيدًا عن تلك الأحداث . . فبعد انتهاء إجازته عاد إلى عملـه وشارك مع زملائه فيما طُلب منهم أن يشاركوا فيه . . وأدى واجبه على الوجه الأكمل . . فشارك فى إيصال الأوامر والتعليمات إلى قيادة المقاتلين . . وشاهد بنفسه ما صنعته الأسلحة الفاسدة بشباب مصر ورجالـها . . وحفر بيديه قبور الأبطال . . وجمع الأجزاء المتناثرة من أشلائهم ليودعها بطن الأرض ويصلى عليها صلاة الشهداء دون أن يعرف إن كان مسلمًا أو مسيحيًّا . . فتَحْت علم مصر ناضل هؤلاء وفاضت أرواحهم تحت ظلالـه . . وكانت ترنيمتهم الحلوة قبل أن يرحلوا : (مصر والعروبة) .

لم يشعر الخونة والغادرون بدماء هؤلاء الأبطال . . ولم يقدروا كم من قلب سيحترق حزنـًا على أعمارهم . . كل شيء أصبح لـه طعم سيىء . . لم يعد

في الحياة معنى حسن أو جميل .

وعاد الجيش المصرى ـ أو ما بقى من هذا الجيش ـ إلى القاهرة يحمل فى قلبه جراحـًا غائرة وفى عيونه نظرات منكسرة . . وعلى رأسه إكليل من العار لم يكن لـه يد أو تدبير فى نسجه أو صنعه وإنما اضطر إلى لبسه على هون .

واستقبل الملك الجيش العائد فى احتفال مزيف فى عابدين ليدارى به ما فعلـه وحاشيته من سوء فى حق هذا البلد الطيب . . احتفال أشبه ما يكون بالاحتفال الجنائزى الذى تدق فيه الطبول ليوارَى صاحبه فى التراب . . وينتهى إلى الأبد .

وعانق الملك قائد الكتيبة السيد طه (أو كما لقب بالضبع الأسود) كما يعانق الذئب فريسته التى أفلح فى الإيقاع بها .

وانفض الجمع وفى قلوب الناس شجن وحزن . . وأنات مكتومة لا يسألون أنفسهم : ماذا ضاع منهم وماذا فقدوا من أحبائهم؟ . ولكنهم يتساءلون : ماذا بقى لـهم؟ وماذا ينتظر منهم؟ وإلى أى منحدر يتجهون؟ .

وعاشت السويس تلك الأحداث كما عاشتها بقية مدن وقرى مصر ، وإن كانت مدن القناة أشد التصاقـًا بما يجرى من غيرها لقربها من ساحة الصراع ووقوعها فى مرمى مدافع وطائرات العدو دائمًا . . وإذا كانت المدافع سكتت إلى حد ما فى الضفة الشرقية للقناة فإنها لم تصمت أبدًا فى مدن القناة حيث المعسكرات الإنجليزية . . ففى كل يوم انفجارات تدوى ومستعمرون يتساقطون وثكنات تتهاوى . . وأبطال يجودون بأرواحهم رخيصة فى سبيل الوطن .

ورجع عدد كبير من الجنود والعاملين إلى السويس . . بعضهم سليم ، وأكثرهم جرحى ومصابون .

ووقفت الزوجة فى شرفة شقتها تنتظر الزوج الغائب الذى لم يخلف موعده من قبل . . وطال بها الانتظار أيامًا وأيامًا دون أن تقطع الأمل أو يتسرب اليأس إلى قلبها . . يذهب أبناؤها إلى مدارسهم ومعاهدهم بعد أن تزرع فى قلوبهم الصغيرة الأمل فى عودة والدهم قريبًا . . وتقف هى إلى جوار النافذة مع موعد كل أذان وكل اسم كريم ينادى . . يملأ سماء الدنيا والأرض : الله أكبر . . لا إلـه إلا الله . . محمد رسول الله .

ثم تمد البصر عبر القناة وفى كل اتجاه تترقب قدومه أو من يحمل لـها أنباء عودته، حتى جارتها التى كثيراً ما بشّرتها بعودة الزوج الغائب، صمتت هى الأخرى . . وتمر أيام وشهور ولا يعود الصول عبد الخالق حاملاً على يديه فاكهة سيناء الشهية، على شفتيه بسمة الحب والرضى، وملء قلبه الإيمان والتقوى .

وبحثت الزوجة طويلاً، ولم تترك بابًا دون أن تطرقه سائلة عن زوجها : أهو فى الأسرى أم المفقودين أم الشهداء . . ولم تجد جوابًا شافيًا من أحد . . فلم يكن لدى المسئولين من السجلات أو البيانات ما يعرفون به من مات أو استشهد أو أسر . . وهذا الغموض دفع الزوجة إلى التعلق بأهداب الأمل فى العثور عليه .

عاشت الزوجة حياة ترهف السمع لكل صوت . . وتسرع إلى الباب عند كل همسة وتترقب وتنتظر دون أن يعود الزوج الغائب . . ووجهت نشاطها إلى أولادها تعدّ لـهم مطالبهم وتدبر المال اللازم على قلّته لتسير بهم قافلة الحياة . . ولم تجد مَن يمدّ لـها يد المساعدة من المسئولين أو غيرهم إلا بقايا ميراث قليل ادخره لـها إخوتها وقدموه لـها حينما أحسوا ضائقتها المالية .

واستعانت الزوجة بإيمانها لتتذرع به فى تحمل الصدمة . . وبصبرها تقتحم الطريق المظلم المهجور . . واستراحت إلى اليأس فلم تفكر فى الماضى، وإنما حملت أولادها على راحتيها لتعبر بهم الصعب وتمكّن لـهم من الأرض مكانًا يعيشون فيه .

وكثيرًا ما فكرت فى أحاديث زوجها وإخلاصه وقوة انتمائه لوطنه، وفيما تعرفه من انضمام ابنها حسين للفدائيين فى السويس بطريق مباشر أو غير مباشر، وفرحتها بالنصر وألمها للـهزيمة .

ولكن ما ثمن هذا كلـه؟ أليس الواجب يقابلـه حق، والتضحية يعوضها عطاء؟ وهل من صدق الانتماء أن يمضى أكثر من عام دون أن تعرف شيئاً عن زوجها أو يتطوَع أحد ليواسيها ويقدم لـها ما يعينها على تحمل تبعات الحياة؟ .

لقد طافت على أكثر من مكتب، والتقت بالعديد من ذوى الرتب والألقاب، وكلـهم مشغول بنفسه يَعدها أو يمنيها أو يتنصل منها، وما وعودهم كلـها إلا باطل وغرور . إن أولادهاَ يشعرون بالمرارة وهم يرون الدولة لا تقيم وزنًا لأبناء شهيد أو مفقود قدم حياته قربانًا لوطنه . . وهل تفعل الدول الأخرى مع محاربيها مثلما نفعل نحن؟ . وأى إحباط يمكن أن يشلّ وطنية الشباب حينما يشعرون بالضياع بعد فقد والدهم المحارب دون أن يجدوا مِن بعده سنداً أو معينًا .

وهى تحرص كل الحرص على التمسك بالشقة التى تؤويها مع أولادها . . وتدفع إيجارها على حساب ضرورات أخرى . . وتقدمت للمحافظة تطلب شقة لأنها تعتبر نفسها زوجة شهيد . . وصدمتها الردود الغبية فعادت أدراجها تكفكف دمعة عزيزة أنزلـها الـهوان من كبريائها . . وحبست آلامها بعيداً عن

أولادها فلم تشأ أن يروها فى موقف الضعيفة الحائرة .

وفى صبيحة يوم سمعت نقراً على باب شقتها فسارعت بفتح الباب لتستقبل ساعى البريد الذى سلمها رسالة مسجلة . . فضت غلافها بيد سريعة مرتعشة وقرأت فى سطورها القليلة أن زوجها يعتبر فى حكم المفقود حيث لم يعثر على اسمه بين الأحياء أو جثمانه مع الشهداء ، وعليها أن تتجه إلى مكتب معين لعمل اللازم نحو إجراءات صرف معاشه . . وجلست منهارة على أقرب مقعد لـها ؛ فآخر خيط واهن ضعيف ربطها بالأمل عامين كاملين تقطعت أوصالـه الآن . . وأيقظتها الحقيقة المفزعة أنها فقدت زوجها الحبيب ولن تراه بعد ذلك أبداً . . هكذا أرادت لـها الحياة وشاء لـها القدر .

obeikandl.com